مناجاة البلايين المهربة

يحدثنا بعض من أهل الخبرة ونجوم الإعلام عن البلايين المهربة فى الخارج ، وتكرر الحديث حتى صح لنا أن نميل إلى تصديقه . . أموال فلكية الأرقام ، وتعتبر من ناحية الوطن ضائعة ، وأصحابها يعيشون بيننا غرباء ، قلوبهم وآمالهم هائمة فى الخارج ، ولَدَى أول بادرة تنذرهم بما يسوء يرحلون إلى الأبد ، وكأنهم ماكانوا .

وجزء من تلك الأموال يستطيع أن يصنع المعجزات فى انتشال الوطن من مأزقه ، والانطلاق بالتنمية الشاملة إلى آفاقها المنشودة ، وطبعًا لا جدوى هنا من استعمال لغة الضمير أو الوطنية ، كما يبدو أن يد القانون لا تطولهم ، ولكن ألا يمكن تجربة لغة المصلحة المتبادلة ؟ بمعنى ـ مثلاً ـ أن نقترح عليهم أن يستوردوا احتياجاتنا الضرورية للحياة ، والتنمية ببعض مالهم ، ويكون لهم المال وأرباحه ، ليستثمروه بعد ذلك فى الخطة الموضوعة ، مع الانتفاع بكافة التسهيلات والامتيازات الممنوحة ، بالإضافة إلى الإقرار بفضلهم فيما يقدمون من خدمات ، وذلك يعنى أننا أنقذنا بعض المال الضائع واستخدمناه فى خير وجهه ، كما يعنى أننا أرجعنا أناسًا ضائعين إلى حظيرة الوطن ، بل إلى أعز مكان فيه .

إنَّ مَنْ يتحدثون عن الأموال المهربة يتحدثون عنها بثقة مَنْ يعرف

أصحابها فردًا فردًا ، فلماذا لا نفاوضهم وندعوهم إلى المشاركة الوطنية ، وبخاصة أننا لا نُحملهم أى تضحية ، بل على العكس ، نهيىء لهم فرصة لمضاعفة الأرباح والانتماء الوطنى ؟ إنها فكرة إنسان أرهقه التفكير فى حال الوطن ومصيره ، وعسى ألاَّ تكون فكرة خيالية .

١٤ / ١ / ١٩٨٨

obeikandl.com

خريطة الشباب

الشباب الذى يبشر بخلق أمة ناهضة يَتَّسِم بمواصفات أساسية لا غنى عنها . إنه يؤمن بهدف كبير فى العصر الذى يعيش فيه ، وبالتالى يتطلع إلى دور شخصى يناسبه فى نطاق ذلك الهدف ، ويكتسب من هذا وذاك انتماءً صادقًا ، وضميرًا اجتماعيًّا يقظًا ، وعزيمة وأملاً وإصرارًا يستعين بها فى شق طريقه فى أطوار التعليم والعمل ، فكيف نرى خريطة شبابنا على ضوء تلك المواصفات ؟

يوجد ولاشك شباب يعرفون لذواتهم أهدافًا شخصية تحوم حول الوظائف الممتازة والمهن الرفيعة ، ولا يحول بينهم وبينها حائل ، وهم أبناء الصفوة القادرة ، وإنْ خالطت حياتهم سلبيات فهى سلبيات المال والفراغ ، ونادرًا ما تتجاوز اهتماماتهم الذات وما يدور حولها ، وتمضى حياتهم بلا سدود أو إحباطات اجتماعية .

ويوجد آخرون ـ ولعلهم الكثرة ـ يتخبطون فى طُرقات غاصَّة بالأشواك ، تعليمهم ناقص ، وأبواب العمل فى وجوههم ضيقة عسيرة ، ومرتبات العامل منهم غير كافيَة وعاجزة عن إشباع احتياجاتهم الأساسية من المأوى والزواج وتحقيق الذات ، وهم يعيشون فى وجوم وسوء ظن ، بلا انتماء أو مشاركة فى الحياة العامة ، ولو بالقلب ، رافضين لما حولهم ، حالمين بالهجرة ، فى ظل تهديد دائم بالانحراف .

وهناك شباب يعرف لنفسه هدفًا ، ويتمتع بالانتماء والإيجابية والإيمان، فيه تتجلى المواصفات الأساسية للشباب الناهض ، ولكن من المؤسف أن يخالط فكره تطرُّف يشذ به عن القصد ، وقد يتمادى بعضٌ منه فى تطرُّفه فيتخطى القانون ويسفك الدماء .

ولذلك تلح المصلحة العليا على بذل المستحيل لإرجاع هذه الفئة إلى حظيرة القانون والشورى والموعظة الحسنة ، ليُدخلوها ـ بكل ما يحظون به من إيمان وإيجابية وانتماء ـ إلى هدفٍ أسْمَى ، فيكون حجرَ الأساس لبناء نهضة ، وسياجَ دفاعٍ للأمة حيال التدهور والفساد .

ونحن لنا دينٌ يقدس العلم والعمل ، وحقوق الإنسان والوطن . وتوفيقنا فى ذلك خليق بأن ينقذ الفئة الأولى من أنانيتها ، كما يخرج الثانية من حيرتها ، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .

١١ / ٢ / ١٩٨٨

نحو تضامن قومى

أُمتنا العريقة العزيزة تخوض أيام شدة ، ما فى ذلك من شك . وعلى رغم الجهد المبذول ، وبشائر التقدم التى تومض هنا وهناك ، فإن قبضة الأزمة الخانقة تشتد حول الرقاب فى أهم ضرورات الحياة ، كالغذاء والدواء والمسكن والعمل ، بالإضافة إلى ما يحمله المستقبل مِنْ نُذُرٍ خطيرة عن ماء الحياة ونورها .

جميع هذه الظروف تدعو إلى التضامن القومى فى ظل نظامنا الديمقراطى ، وما نُنادى به من سيادة القانون ، وإن يكن التضامن واجبًا فى أوقات الحرب ، فما نعانية كل يوم ، وما يُطل علينا من الغد ، مثل الحرب أو أشد . ولا يخفى على أحدٍ ما لهذا التضامن من فوائد ، فهو يوسع دائرة الاختيار لانتخاب الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وهو ييسر لكل رأى بناء بلوغ الآذان والقلوب بدون جرح أو مرارة ، وهو يضفى على الحوار صدقًا وإخلاصًا ، وينقيه من شوائب الذاتية وعدم المسئولية . وهو أخيراً يشجع على اتخاذ القرارات الصعبة بدون خوف من عواقب مصطنعة ، فضلاً عن أنه يُنزلنا المنزلة اللائقة بالرجال الصادقين فى المواقف الحاسمة .

وكخطوة تمهيدية لذلك يجب أن نبدأ بإلغاء قانون الأحزاب ـ وهو

أضعف الإيمان فى مجال الإصلاح السياسى المرجو ـ احترامًا لحقوق الإنسان ، وإطلاقًا لحرية المواطنين فى تكوين ما يشاءون من أحزاب . وما الإنكار القانونى لحزب قائم فى الواقع إلا مهزلة اجتماعية ، فالقانون قد يعترض تدفق الواقع أو يجمده إلى حين ، ولكنه لا يلغيه .

كذلك فإن من العبث أن نفكر فى تضامن قومى ونحن نتجاهل مواطنين لهم وزنهم الفكرى والوطنى ، كالجماعات الإسلامية ، والناصريين ، والماركسيين ، وغيرهم . وبصفة عامه إذا أردنا تضامنًا قوميًّا فعلينا أن نفكر تفكيرًا قوميًّا .

١٩٨٨ / ٣ / ٣١

كرسى الاعتراف

المواطن الصالح غائب إلاَّ فيما ندر ، لا أفرق فى ذلك بين من ينتمون للشعب ومن ينتمون للسُّلْطَة ، فالناس فى مجتمع واحد وزمن واحدٍ وَحْدَة خاصة ، ولكنهم يشتركون فى حضارة واحدة بصفة عامة ، فمن عيوبنا البارزة اليوم التى لا تخفى على أحد ، السلبية ، وضعف الانتماء ، والنفاق ، وذبول النزاهة .

الجمهور يتفرج ولا يبالى ، حتى حق الانتخاب لا يتجشم مشواره القصير ، ولا يكاد يهمه من وطنه إلاَّ نفسه أو أسرته ، ويتخذ من النفاق وسيلة للسلامة وبلوغ المقاصد ، ويتناسى الإخلاص فى العمل ، فالغش البسيط سلوكه اليومى ، ولا يتورع عن الغش المركب ، فيحاول استيراد أغذية ملوثة بالإشعاع ، أو يوزع أطعمة فاسدة ، أو يؤجر عمارة لا تلبث أن تنقض على ساكنيها .

وأيضًا للمنتمين إلى السلطة سلبيتهم ، فعادة لا ينضبطون إلا حين وقوع الكارثة أو حضورها ، وهم ينافقون مَنْ فوقهم كما يُنافقهم مَنْ تحتهم ، وقد يرتشون أو يقبضون العمولات ، أو يتاجرون بأقوات الشعب ، ويتحركون وكأنهم أسيادُ الشعبِ لا خُدَّامُه وأُجراؤه ، ويثبون فوق القانون وهم يتغنون بسيادته ، ويعدون خير الوطن من أرض ووظائف وقفًا عليهم وعلى أبنائهم وذويهم ومماليكهم .

صورة كئيبة ، ولكنها صادقة بصفة عامة ، ولن يغيرها قلة صادقة عاملة مجتهدة ، ولو أن ما حَلَّ بنا هو من صميم طبيعتنا لو جب أن نفنى أو ننتحر ، ولكنها حال من ظُلماتها منتصرة قوية قاهرة . فأنا أصف واقعًا بغيضًا ولا أدعو لليأس ، ولكن يحسن بنا أن نتذكر ما أطاح بنا إلى الهاوية ، وأن نتساءل عمَّا يُخرجنا منها .

١٤ / ٤ / ١٩٨٨

obeikandl.com

الإيـدز السياسـى

كيف تفشت الأخلاق الرديئة ؟ حسبى أن أركز على سببين جوهريين تعاونا على غزو أمتنا الطيبة العريقة مثل داء الإيدز فأفقداها أصول مناعتها ، وهما : نظام حكم قام على الاستبداد والقهر ، وأزمة اقتصادية خانقة تهز الاستقرار النفسى والأمان الاجتماعى ، ولن أطيل فى تفصيل آثارهما الوبيلة ، فقد خبرناهما كما يخبر المريض الذى أُلْصِقَ به أعراض المرض ، مثل ارتفاع الحرارة ، والغثيان ، والصداع ، والآلام المبرحة .

إنه حالٌ يُفْرِغُ المواطنَ من شجاعته وسروره بالحياة ، ويُحيطه بالخوفِ وسوء الظن ، ويدفعه إلى مُداهَمة الحاكم ، بتقديم قرابين النفاق والكذب والخداع ، وانفصام الشخصية ، ثم يُسقطه فى الصمت والسلبية وعدم الانتماء ، والانحصار فى لقمة العيش ، مع الاستعداد للانحراف ، والإعراض عن التقاليد الكريمة ، وقد تثور الأعصاب فيقتل أو يغتصب ، وقد تُسَدُّ المنافذ فيدمن المخدرات أو ينتحر .

أما الذين يمارسون الاستبداد فمع الزمن يتعالون ويستكبرون ، وتقسو قلوبهم فلا يتورعون عن التنكيل بالضحايا بالإيذاء والتعذيب ، هازئين بكل قيمة ، وفى مقدمتها حقوق الإنسان والإخوَّة الوطنية ، ثم يعميهم الجشع بالنهب والسلب والعدوان وتخطى العُرْفَ والتقاليد والقانون .

هذا ما فعله بنا الاستبداد والأزمة ، سلط بعضنا على بعض ، ثم سلطنا على أنفسنا .

ولا شك أن العلاج قد بدأ فى الفترة الأخيرة بالتوجه النهائى نحو الديمقراطية ، والحث المتواصل على العمل والإنتاج ، والمحاولة الدائبة لاحتواء الأزمة .

ولكن لا مفر من خطوة جديدة حاسمة كى يكون لهذا الليل آخر .

٢١ / ٤ / ١٩٨٨

obeikandl.com

حول التربية الدينية

تلقينا فى طفولتنا وصبانا تربية دينية شاملة . درسنا الفرائض والأخلاق ، حفظنا ماتيسر من السور ، وأَلْمَنَا بالسيرة النبوية وجانب من تاريخ الإسلام .

من المُسَلَّم به أن التربية الدينية يجب أن تشمل ذلك كله ، ولكن يجب أيضًا أن نضيف إليها بوعى وتركيز أغراضًا جديدة ، تُعَدُّ من ناحية من صميم روح العصر ، كما أنها مستمدة من مضمون الدين بلا تكلف من ناحية أخرى . من ذلك أن نربى الناشئة على حُب العلم والمعرفة وتبجيل العلم والعلماء ، وسنجد لتأييد ذلك مانشاء من سند فى القرآن والحديث ، وأن نوجههم إلى تقديس العمل والإخلاص فيه ، والتفانى فى تنفيذه لخير الفرد والجماعة ، وسوف يمدنا الدين بما نشاء من آيات وأحاديث وحكايات مؤثرة ، وأنْ نُشْرِبَ قلوبهم حب الحرية والديمقراطية ، وندربهم عليها بالحوار والتزام العقل ، منطلقين من الشورى ومواقف مشهودة فى تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن نملا قلوبهم بحب العدالة الاجتماعية ، انطلاقًا من مبدأ التضامن البشرى ، والمساواة ، وحكمة الزكاة . ولنُذكرهم دائمًا وأبدًا بتقديس حقوق الإنسان ومغزاها فى التاريخ الإسلامى ، لنجعل من ذلك أساسًا متينًا للوحدة الوطنية والإخوَّة البشرية .

إن الفرد الذى ينشأ على تقديس هذه المبادىء ـ تقديسه للتوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ـ لَهُوَ فرد جدير بالحياة فى دنيانا ، مؤهل لذلك خير تأهيل بما تلقنه من قيم روحية ومادية ، جدير بأن يشارك فى العصر معتمدًا علي نخبة من روحانياته ، ومتطهرًا فى الوقت نفسه من كثير من آفاته .

١٩٨٨ / ٥ / ٥

obeikandl.com

صلاة الاستسقاء

فى عام ١٩٨٦ تمت دراسة هامة شاملة فى المجالس القومية المتخصصة لتناقص مياه النيل وعواقبها المتوقعة فى الزراعة والطاقة . وصدرت توصيات بترشيد المياه والطاقة والسياسة الزراعية التى يجب أن تُتَّبع .

والمجالس القومية تعمل منذ إنشائها فى دأب مستمر ونشاط كريم ، مستندة إلى خبرة أعضائها وحماسهم . وفى الفترة التى سمحت ظروفى الخاصة بشهود جلساتها كنتُ أستمع بارتياح إلى ما يبلغه لنا الدكتور محمد عبد القادر حاتم ـ المشرف العام على المجالس ـ عَمَّا يُنفذ من توصيات المجالس ، مما يقطع بأن جهدها لا يضيع بلا ثمرة .

وأود أن أعتقد أن التوصيات الخاصة بالنيل قد لقيت ما تستحقه من عناية من جهة الاختصاص ، إنْ لم تكن قد سبقت إلى ذلك يقظة منها ، واستجابةً لواجبها .

ومن حديث وزير الرى فى الأهرام ندرك أنه توثب لمواجهة التحدى منذ وقت طويل ، مما يدعو للطمأنينة والثقة ، ولكن لُوحظ أن المواجهة جرت فى سرية ودون دعوة للجمهور للإحاطة والمشاركة ، باعتباره صاحب الشأن الأول فيما يكون . ولم يقف الأمر عند ذاك ، ولكن تجاوزه

إلى اتهام الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين بإثارة القلاقل عندما عَالَنَ الناسَ لأول مرة بمعلوماته عن الموضوع .

ولاشك أن هذا أسلوب من العمل مما ورثناه عن العهد الشمولى ، ومما يجب أن نتحرر منه فى عهدنا الديمقراطى . وستثبت الأيام القادمة صدق الجهد الذى بذل ، أمَّا فيما يخصنا كشعب فعلينا أن نكون على مستوى المسئولية والتضامن ، وأن نقف فى وجه التحدى صفًّا واحدًا واعيًا ، وأن نكون عند حُسن الظن بنا كلما دعا الداعى إلى ذلك .

١٩ / ٥ / ١٩٨٨

obeikandl.com

ثمة صحوة دينية شاملة لا يمكن إنكارها ، ولا يجوز تجاهلها ، وهى ليست مقصورة على الجماعات الدينية ، ولكنها تسرى فى روح الأمة جمعاء ، وإنْ تفاوتت درجاتها . وتلك حال يجب أن يتأملها المصلحون والمخططون للمستقبل بعناية فائقة ، وعليهم أن يعتبروها قوة متاحة وطاقة مدخرة تنتظر من يتعامل معها بحكمة ودراية ، ويوجهها الوجهة الصحيحة السليمة لبعث الأمة من رقادها ، والسمو بها إلى ذروة نهضة متينة الأساس ، قوية الأركان .

ومن نِعَمِ الله علينا أن ديننا دين دنيا كما أنه دين آخرة ، يدعو إلى تعمير الأرض ، ويقدس العلم ، ويعد العمل عبادة ، فضلا عن أنه رحمة للعالمين بما أعلن من حقوقٍ للإنسان ، وما قرر من مساواة بين أهل الديانات . وما عصرنا إلا عصر العلم والعمل وحقوق الإنسان ، فمن الحكمة أن نجعل من الدين منطلق تربيتنا ونهضتنا ، وفى ذلك ما يضمن خَلْقَ إنسان صالح يملك من مقومات الوجود ما يقتضيه الوجود الإنسانى المستنير الشريف ، يزدهر تكوينه بالانتماء والإيجابية ، والاستقامة والاجتهاد ، وحب العلم والمعرفة ، وحب الإنسان .

ولا يفزعنك ما نلقى أحيانًا من شباب منحرف الفكر أو السلوك ، فلو أنه حُصِّنَ بالتربية السليمة التى لا ترعى إلاَّ وجه الحق وحده بدون

خوف من إنسان أو تملُّق لسُلطة ، لكان الأساس الراسخ لنهضة شاملة بإيمانه وإيجابيته وحماسه ، وقدُرته على تحدى التحديات . . نحن نملك ثروة طائلة فلنستثمرها فى الخير ، ولا نكن كالوارثين الفاسدين الذين يبددون ثرواتهم فى الباطل .

١٩٨٨ / ٦ / ٩

obeikandl.com

بين الدين والدنيا

كل حكومة هى حكومة دينية على نحو ما ، لا أعنى بذلك أن تكون السلطة بين رجال الدين ، أو بيد شخص يدعى لنفسه العصمة ، ، أو أنه ظِلُّ الله على الأرض ، وغير ذلك من الأقنعة التى يتخفى تحتها الاستبداد ، ولكن من ناحية المضمون الأخلاقى الذى تلتزم به فى معاملاتها وتشريعاتها . ذلك أن الدين من الناحية التاريخية هو المعلم الأخلاقى الأول للبشرية ، وأنه ما من حكومة إلاَّ وتلتزم فى دستورها وقوانينها بالسائد من الأخلاق والتقاليد والقيم ، ولذلك يمكن أن نعدها حكومة دينية من ناحية المضمون ، حتى إنْ نَحَّتِ الدِّينَ جانبًا أو نبذته نبذًا .

ومن هنا نجد فى الدستور السوفيتى قيمًا دينية الأصل ، كالمساواة ، والعدالة ، كما نجد فى عقوباتها ما يشبه الحدود أو ما هو أشد . أجل إنه عند التطبيق تحدث فجوة بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن ، وقد يستشرى الفساد فتتسع الفَجْوَة حتى تطمس الصفة الدينية أمام الأعين ، وخاصة أعين المتطلعين إلى المَثَلِ الأعلى ، فيشتد بهم الغضب ، ويُكَفِّرُونَ الجميعَ ـ دولةً وشعبًا ـ ويتخطون فى غضبهم المألوف والقانون ، وينادون بحكومة دينية كوسيلة للتطهير والتقدم .

والواقع أن الحكومة المنشودة قائمة بالفعل ، وإنْ توارىَ جوهرها تحت الأتربة المتراكمة ، وقد يعيدها إلى أصلها الإصلاح العميق الشامل الذى يعنى فى النهاية تضييق الفجوة أو سدها ، وإعادة النظر فى بعض الأمور، وتغيير بعض العناوين . وإذا نفذ ذلك بالحكمة والإدراك السليم وفهم روح الدين والاستجابة لمقتضيات العصر جَازَ لنا أن نأمل فى حياة جديدة فيها الخير كل الخير للناس أجمعين ، وعندنا من أهل الخبرة والاعتدال من يؤكدون ذلك ، وقد أعلنوا رأيهم مرارًا وتكرارًا ، وهو أن الفارق بين القوانين القائمة والأخرى التى يُطالب بها الآخرون قليل ، وأن الاجتهاد كفيل بالتوفيق بين الثوابت والمتغيرات . وإذا كان ذلك كذلك فلماذا نقف عند حد المناقشة ولا نتجاوزه إلى حيز التنفيذ ؟ . لماذا لا نخرج من جو القتامة والشك إلى نور النهار السافر المؤيد بالمصلحة العامة وحقوق الإنسان والوحدة الوطنية ؟

١٦ / ٦ / ١٩٨٨

كيف يكون التفكير ؟ وكيف يكون السلوك ؟

إننا لا نفكر فى فراغ ، ولا فى رَغَد من العيش ، ولكن فى غمار تحديات اقتصادية وسياسية وفكرية وكونية تجعل من حياتنا توترًا مستمرًّا ، وخطرًا داهمًا ، وتطالبنا ببذل جميع ما نملك من حكمة وخبرة لنقرر مصيرنا نحو مستقبل حافل بكافة الاحتمالات . فعلينا جميعًا ـ شعبًا وأحزابًا ودولة ـ أن نستحضر الجو المحدق بنا كلما فكرنا أو عزمنا على إصدار قرار ، علينا أن نركز على المصلحة العامة ، وأن نتوخى السبيل إلى سلامة الوطن ، وأن نتجاوز عَمَّا تقتضيه منافسات الحياة المألوفة ، وما تثيره الخصومات المشروعة فى الظروف العادية ، وما تغرى به المناورات الحزبية ، ففى زمن الخطر يجب أن يتغير التفكير والقرار ، وتتوجه النوايا نحو هدف واحد ، هو الخلاص ، مع كل ما يتطلبه من تضحية ونكران للذات . وهيهات ـ إنْ وقعت الواقعة ـ أن يهنأ خصم باندحار خصمه ، أو يشمت مناضل بهزيمة غريمه .

قد تجد الحكومة نفسها فى مركز القوة ، وترى أن تستأثر بكل شىء ، وأن تتمادى فى الخصام والكبرياء .

وقد تجد المعارضة نفسها فى مأزق ، فلا حرية فى الحركة ، ولا ثمرة

لجهد ، ولا تداول فى الحكم ، وأنها تصرخ فى وادٍ ، وتمضى إلى طريق مسدود .

فهل تقابل العناد بالتطرف ، والكبرياء بالعداوة السافرة ، يجوز ذلك، بل يجب فى الظروف العادية ، أما اليوم فإن الموقف أكبر من ذلك وأشد . إنه موقف الحكمة والتضحية ، ولن يفوز فيه من ينكل بالخصم أو يوقعه فى عواقب سَوْآته ، ولن يظفر بالبطولة ذكىٌّ أو مُناوِرٌ أو داهية ، ولكن الوطن والتاريخ ينتظران البطل الحكيم الفدائى المنكر للذات ، الذى يتقدم الصفوف مستهدفًا غاية وحيدة ، هى سلامة الوطن .

١٩٨٨ / ٧ / ٧